التحليل البلاغي وانفتاح موالج النص لدى بارت

تركي أمحمَّد*

لم تخرجِ البلاغةُ في عهدها الأثيني عن الأنماط الخطابيّة الثَّلاث الَّتي حدَّدها له المعلَّم الأوَّل أرسطو(ت: 322 ق.م)؛ وهي الممثَّلة في الخطاب القضائيّ المشاجريّ، والتَّداوليّ والشِّعريّ الجماليّ. وهذه الأنماط تتواشج فيما بينها؛ إذ يُمثِّل الإقناع قاسمها المشترك الَّذي لا تبعد عنه إلاّ لتقرب منه، ولذلك اهتمّ البلاغيون والنُّقاد به وتعمّقوا في البحث عن الوسائط البانية له، وذلك لما له من أهمية بالغة ورئيسيّ في عملية التَّأثير والإذعان. فإذا بحثنا عن جماليّة النَّصّ وجدناها في عمليّة التَّأويل الَّذي يدرّ معاني مختفية لم يكن للقارئ إيجادها لو لم يركّز قراءته ويفكك شفراتها، ليكتشف في الأخير بلاغة اللّفظة الواحدة والجملة الواحدة فيتحوّل من قراءة النَّصّ إلى الاستمتاع بهذه العبارات أو الكتابة ككلّ متكامل، ليتجاوز الإعجاب بهذه الكتابة إلى التَّساؤل من قبيل لمَ قال النَّاصّ هذا؟ ولم يقل هذا؟ ولمن وُجِّه هذا النَّصّ؟.

إنَّ البحث في قضيّة الإقناع الَّتي تعدّ من أساسيّات البحث التَّداوليّ، هي بحث في العلامات والإشارات اللُّغويّة وغير اللُّغوية الَتي تيتبنَّاها المخاطِب ليُلفت انتباه المخاطَب، وهذه القضية كما أسلفنا كانت لها ضربة موغلة في القدم وفي كلّ المجالات القائمة على اللُّغة باعتبارها أداة للتَّواصل، إلاَّ أنَّ الاهتمام بقضية الاقناع وبلاغته "لم يثبت فقد فقدت مع البلاغيين الجُدد هذه الخاصية الذَّرائعيَّة المباشرة باتِّخاذها موضوعاً امتيازيّاً لها" [1]. فالجمال يقوم على الإقناع فأن يقنع الشَّاعر متلقيه –مثلا- هو أن يجعله يستصيغ مادته الشِّعريّة ويتذوَّق جمالها، والجمال فعل مصاحبٌ للإقناع، متى اقتنع المخاطَب بالفكرة أُعجب بها.

وهذا أمر عضَّده البلاغيون الجدد وهو ما يجعلنا نستثني النّاقد والفيلسوف والمنظّر اللّغويّ الفرنسي رولان بارت (**Roland Barthes**) مثلا من القول السّابق، فبارت من البلاغيين الجدد والمفكرين والأدبيين الَّذين لهم حسّ مرهف و مواقف وأراء ونظريات في حقل التَّواصل وطرق بناء القول الأدبيّ

* باحث أكاديمي - المركز الجامعي أحمد زبانة- غليزان-

فيما يخصّ العلامات وطرق استعمالها. وهذا هدف بلاغيّ تداوليّ، وهذه هي البلاغة الجديدة الّتي نادى بها جمع من النُّقاد كجيرار جينيت(**GérardGenette**) وجون كوهين(***Cohen*** **Jean**)ورولان بارت(**Roland Barthes**) وغيرهم.

استرجاع الأمجاد بحث في مفهوم البلاغة وتحديد لماهية الجدّة:

يعد رولان بارت من المؤسّسين البارزين المجدّدين لقضايا البلاغة القديمة، حيث انطلق من الجاهز وبدأ يبلوره بمنظور ما استحدث من العلوم اللُّغويّة في ظلّ اللّسانيات البِنيويّة والتّداوليّة، معتبرا أنّ الإنسان يقتات من لغته، ولذلك بدأ يبحث في طرق تأدية هذه اللُّغة والوصول إلى الهدف المنشود الّذي تطمح إلى تفعليه فلكلّ شيء دلالة، ولكلّ سِمَة تأويل، فلم تعدِ البلاغة تعني فن الخِطاب الجيّد بقدر ما أصبحت تعنى بقضيتي الإقناع والإمتاع وفتح شهية المتلقّي على القراءة والتّأويل. وهذا ما عبرَّ عنه بقوله: "ينبغي إعادة التّفكير في البلاغة الكلاسيكيّة بمفاهيم بِنيوية (وذلك هو موضوع عمل قيد الإنجاز)، وسيكون، حينئذ، من الممكن وضع بلاغة عامّة أو لسانيّة لدوال التضمين، صالحة للصّوت المنطوق، والصّورة والإيماء "[2]. أي إنَّ الأداة المعالجة لجماليّة النّصوص تعالت على تلك النّظرة الضَّيّقة للقضايا والأساليب البلاغيَّة، فأصبح القارئ يتمتَّع بالسُّلطة في ظل بلاغة "بارت""ليُسائلوا يُحاجج ويحاور المبدِع عن كيفية بناء نصّه سواء كان شعريّاً أو نثريّاً في حين صار المبدِع يكتب ويضع في حسبانه ما سيواجهه من قبل الذَّات القارئة أو المتقبّلة حتّى تسلِّم وتذعن لصحَّة القضية، وعليه لم تكنِ البلاغةُ "أداةً للتزويق والزَّخرفة بقدر ما أصبحت ممارسة بِنيويَّة يعوَّل عليها في عملية بناء النُّصوص الأدبيَّة والشِّعريَّة، كما لم تجاوزت فكرت المعيارية والقواعد الجاهزة والصِّيغ المكتملة الجارية على كلّ لسان لتتحوَّل إلى أداة خلاقة ذات فعاليّة كبرى في إنتاج النُّصوص"[3].

هذا ما تبنَّاه النَّاقد "رولان بارت" في مسيرته البحثية للكشف عن ماهية النُّصوص وطرق بنائها والجمال الغائر تحت سطورها، وهذا الجمال لم يكن ليُرى أو يُشاهد لو لم يتّبع تحليلا بلاغيّا مركّزا فيه على مفاهيم بِنيويَّة بالدّرجة الأولى. وفيه رصد جميع المفاهيم المتعلّقة بماهية البلاغة ومفهومها الأصليّ الّذي لم يكن ليجلو إلاَّ بدفعها في أحضان الدّرس اللِّساني البِنيوي الحديث المُراعي للثَّالوث التَّواصليّ (باث، متلقّي، رسالة تواصليّة)، وما تركيزه على المتلقّي إلاّ خدمة للّذة الّتي يعود به النَّصّ على متلقيه؛ أي إنَّه يُشيد بالعمل الكتابيّ الّذي متى قَبِله المتقبّل أثّر فيه. وهذه أوّل ميزة من مزايا التّحليل البلاغيّ البارتي.

إن تركيز "رولان بارت" على البلاغة لم يكن من قبيل الصّدفة؛ بل لنظرة قبلية مسبقة سادت مع أرسطو وقبله بكثير، ولعلّ هوس الرّجل بالبحث في مكامن الدّرس البلاغيّ له شرخ غائر وبعيد يمكننا إرجاعه إلى البعد المجازي للُّغة، وهذا ما نوَّه إليه في مقاله المعنون بـ: (مختصر في البلاغة القديمة) وفيه يَنظر إلى البلاغة على أنَّها" حقلٌ إيحائيّ للُّغةِ الَّذي يحوِّل التَّعبير اللُّغويّ من صورة إلى صورة"[4].

رولان بارت و البلاغة السِّيميائيَّة :

بعد أن تجاوزتِ البلاغةُ تلك النّظرة المدرسيّة ذات القواعد الجافّة، أضحت تُعنى بالقول وبقواعد إيراد القول والخِطاب " الخطابات والأجناس الأدبية، وتصنيف الصور البلاغية والمحسنات البديعية، وتبيان وظائفها في ضوء مناهج معاصرة لسانية وبنيوية وسيميائية وشعرية .(**Poétique**) ولم تقتصر البلاغة الجديدة على ماهو لساني في دراسة الصور والخطابات الأدبية، بل كانت تهتم بالحِجاج في الخطابات الفلسفية، والأخلاقية، والاجتماعية، والقانونية، والسياسية مع شايم بيرلمان (**C.PERELMAN**) ولويس أولبريخت تيتيكا .(**L. OLBRECHTS-TYDECA**)" [5]. والمعنى أنّ البلاغة انفتحت وتوسّعت اهتماماتها بقضايا كل الحقول المعرفيّة على اختلاف أنواعها وأصنافها، فقد شملت التّعليم والحقوق والفلسفة والصّحافة وصولاً إلى الخِطاب العاميّ الَّذي يدور فيما يتداوله النَّاس في الأسواق والدَّكاكين (الحياة اليوميَّة)، فلم يعدّ النَّاصّ مهتمّاً بالمحسِّنات البديعيّة الّتي باتت لها وظيفة مخالفة لما كانت عليه، بقدر ما أصبح مرتبطا بكيفية إقناع هذا المتلقّي.

وأكثر من هذا بإمكاننا الحديث عن بلاغة جديدة عامّة تنطلق من الملفوظ والعلامة لتعود إلى دراستهما، وهذا ما وجدناه مع منظّرها الفرنسي رولان بارت (R.Barthes) الَّذي رآها ترتبط بدراسة الأنظمة و الأنساق السِّيمائية والعلاماتيَّة؛ وهو هدف تبنّته كذلك جماعة مو (Groupe µ)، الَّتي فتّقت مجال البحث البلاغيّ في العلامةسواء"أكانت لفظيَّة أم غير لفظيّة، ضمن ما يسمى بالسِّيمياء المرئية أو البصريّة(La sémiotique visuelle) ". [6]

إنّ اختلافَ التّعاريف والرّؤى في تحديد ماهية مفهوم البلاغة الجديدة أكسب النَّصّ ثروة جماليّة معرفيّة على كافّة الأصعدة، فمن أي زاوية تناوله القارئ فكّ شفراته وفَهِم مقصوده، وكأنَّ البلاغة في ثوبها الجديد وَحدت كلّ الحقول (سيميائية، شعريّة، لسانيّة، تداوليّة، حجاجيَّة) للحكم على جماليَّة هذا النَّصّ ومدى تحقيق المنفعة فيه؛ فهي كما يقول أحد النُّقاد لا" يهمُّها ما يقول النَّصّ ولا من قاله؛ بل يهمّها كيف قال النَّصّ ما قاله " [7]. وفي ظلّ هذا كلّه نعي قدرة النّاقد"بارت" الفكريّة والأدبيّة فقد حاول تجميع كلّ ما ساد قبله وسُبِق فيه محاولاً تعميم التّحليل للقبض على التّصور

البنائيّ الّذي يزخر به المعنى داخل النَّصّ فيقول:" سنجمع إذن هذه العناصر الدَّلائليَّة (السِّيميائيّة) تحت أربعة عناوين كبرى نابعة عن اللِّسانيات البِنيويَّة: أ- اللِّسان والكلام، ب-المدلول والدَّال، ج- المركَّب والنِّظام، د-التَّقرير والإيحاء" [8].

هذه المحاور الأربعة موجودة في كلّ حلقة لغويّة أو غير لغويّة تعتمد على (الإشارات، والتَّلميحات)، ومنها ينطلق الباحث في تفتيت دلالات النَّصّ الواحدة دون تجاوزها للبحث عمَّا يصادف المؤلِّف من حركات ونوازع أثناء كتابته للنَّصّ. فمن هذه المزاوجة بين اللِّسانيات البِنيوية والسِّيميائيّات تتأسّس بلاغة النَّصّ فبالأولى نكون أمام القوانين الصَّانعة والمؤسّسة للقول وبالثَّانية نبحث في سرّ هذه القوانين الَّتي خولت للنَّاصّ نسج هذا القول.

إنَّ اهتمام النّقاد بالعلامة هو اهتمام باللّغة باعتبار أنّها دالة على وجودها، وما حديث "بارت" عن اللّغة واللِّسان إلاَّ حديث عن النِّظام العلاماتيّ المتحكّم في تنظيم هذه العلامات من الجهتين (لغويّة وغير لغويّة)، وإن كانت الثَّانية جوهر البحث عند "رولان بارت".هكذا نلمس الخطوط العريضة للتّحليل البلاغيّ الجديد الّذي حمل لواءه "رولان بارت"؛ وهو تحليل يرتكز على مفاهيم بِنيويّة تحاول دراسة المستوى الإيحائي للُّغة، وهذا مبدأ عكف على إظهاره وإثباته، وذلك لما "للإيحاء من معان يتحدَّد بها تحليليّاً عبر فضائين، فضاء متواليات؛ وهو عبارة عن تسلسلٍ نظاميّ: فضاء خاضع لتتالي الجمل؛ الَّتي يتناسل المعنى طولها بفعل التَّرقيد، وفضاء تكتليّ وتجميعيّ يخصّ ذاتا ما، أمَّا ذاك فتعالق محايث للنَّصّ وللنّصوص" [9]. هذه هي الفكرة التّي دفعت النّاقد للغوص في أعماق النَّصّ الأدبي؛ محاولا الكشف عن جمالياته الغائرة فيه بعيدا عن كلّ المثيرات الخارجيّة الّتي كانت سببا في وجوده.

التَّحليل البلاغيّ كإجراء جماليّ تكامليّ للمعالجة النَّصيَّة:

يهدف "رولان بارت" في مسعاه البلاغيّ إلى بناء بلاغة جديدة تقوم على دراسة البِنية الجوانية للنَّصّ الأدبي، ولذلك يرى بأنَّ النَّصّ وعاءٌ مشحونٌ من المعاني المخبوءة تحت ألفاظه وتراكيبه، وبالتّالي لا يمكننا الوقوف على المعنى الظّاهري دون تعديه لدراسة العلامة اللّسانية وما ينزوي عنها من تصوّرات، ولم يقف بارت في مجال تجديد البلاغة عند حدود العلامة اللّغويّة فحسب؛ وإنّما وسّع دائرة البحث والاشتغال لتشمل جميع الأنساق السّيميائيّة غير الملفوظة كالملابس وأواني الأكل والموضة والصّور الفوتوغرافيّة، والإشهار الصّحفيّ وغيرها، وهو بهذايختلف مع فرديناند دي سوسير الّذي درس العلامة اللّغوية وعلاقتها.

هذه هي الأطر الّتي انطلق منها بارت في تحليله البلاغيّ والنّصيّ لمختلف النّصوص، وعليها تمكّن من تأسيس بلاغة عامة تدرس الدّوال الإيحائيّة اللّسانيّة وتراعي أهميتها في تشكيل الصّورة الفنيّة الّتي يتمتّع أيّ نصّ؛وهذا ما نوّه له في كتاباته التّنظيرية في حقل البلاغة الجديدة، فبارت لم ينبذِ القديم (البلاغة القديمة)، لكنّه انطلق منه في تأسيسه لهذه البلاغة الجديدة والعامّة الّتي تدرس القول في بعديه الإقناعي والإمتاعي، وعليه كانت البلاغة عنده بلاغات؛ بلاغة تعني بتجميل الأسلوب فيما يخصّ بناء الصّور المجازيّة، وتنميقها بالمكوّن البديعيّ، لتتجاوز هذه إلى قراءة كلّ الصّور وبدون استثناء(لغويّة وغير لغويّة إشاريّة، رمزيّة، أيقونيّة مثلا يقول رولان بارت: "إذا كانتِ البلاغات تختلف حسب مادتها التعبيرية (كلام، صورة، حركة..) فإنَّ شكلها لا يتغيّر بالضّرورة، من الرّاجح ألا يكون هناك إلاّ شكل بلاغيّ وحيد مشترك بين العلم والأدب والصّورة [10]."

إنّ المتأمّل لهذا الكلام يلمح قيمة النّظرة الشّموليّة للمشروع البلاغيّ السّيمائيّ الجديد القائم على التّحليل والتّوسيع، ولعلّ هذا التّطبيق وجد أرضيّة خصبة في الخِطاب البصريّ الأيقونيّ، وما حديث بارت عن تمدّد مصطلح البلاغة وتطوّره إلى بلاغات تفتّقت عن مشروع بلاغيّ واحد إلاّ تأكيد على منحها القيمة الّتي حظيت بها عند أرسطو **(ت: 322ق.م)**، فكلّ شيء في العالم يقوم على بلاغة أو المعرفة المهمّشة كما سمّاها ولا نلجأ إلى توصيف هذه البلاغة؛ فهي موجودة "خارج المدرسة والجامعة، لتحضر في التّلفزة والإشهار والرّسم والسّياسة والمواعظ الدّينيّة ومؤسّسات الثّقافة ومناهج العلوم وهلّم جرا، فلا يكاد يخلو منها أيّ خطاب، إلى درجة تجعلنا نعرّف الإنسان بأنّه حيوان بلاغيّ" [11]. وعليه وجب على الدّارسين احتضان هذا الخطاب دراسة وبحثاً لأنّه في تطوّر مستمّر لا يمكننا حدّه، وحصره في آليّات معيّنة متى اتّبعها المبدِع كان لكلامه الأثر البالغ في نفسية متلقيه.

وإنّما تعاملوا معها على أنّها نسق معرفي له منهج قادر على وصف وتفسير الأنظمة السّيميائيّة الّتي يعرضها علينا الأدب باعتباره مؤسّسة وعملاً -وهذا ما يظهر جليّا في قوله-: " أمّا بوصفه مؤسّسة، فإنَّه يجمع كلّ الاستعمالات والممارسات الّتي تنظم دورة الشّيء المكتوب ف مجتمع من المجتمعات: المكانة الاجتماعية والإيديولوجية للكاتب، طرق التوزيع، شروط الاستهلاك، إقرار النّقد. وأمّا بوصفه عملا فتكوّنه جوهريّا رسالة كلاميّة، مكتوبة، وذات نموذج معين. ألاّ وإنّي أريد أن أقف عند العمل الموضوع مقترحاً أن نولي اهتمامنا بحقل لم يُسبر إلا قليلا(وإن كانت الكلمة قديماً جدا) إنَّه حقل البلاغة"[12].

يُحدّد "رولان بارت" ماهية الأدب وكيف يمكن للبلاغة أن تدرس طرق الأديب وآلياته في إنجاح التَّواصل، فالنّاقد لا يخرج في دراسته عن المثلث الاتصالي (باث، متلقّي، نصّ)، وهو ما يولّد الإقناع

أولا ثّم الإمتاع ثانيا، ومتى استطاع هذا الباث التّحكّم في لغة التّعبير حُقّ له أن يكون مبدعا متميّزا، وهو ما أشار إليه "رولان بارت" في كتابه البلاغة القديمة، وهي الفكرة انطلق منها في تحليله لبلاغة الخِطاب الّذي يقوم على لغة متميّزة، لغة الكثافة والانزياح، وهي لغة بعيدة عن لغة التوصل اليوميّ، كما أنّها لغة تفارق لغة الخشب. صحيح أن النّاقد الفرنسي رولان بارت جعل البلاغة هي العلم الّذي يدرس الأدب كنظام لغويّ لكنّه وقف عند التّباين والاختلاف الكامن وراء هذه اللُّغة، ومنها اعتبر البلاغة "الحقل الإيحائي لها، الّذي يحوّل التّعبير بواسطة المحسّنات من صورة إلى أخرى" [13].

وبذلك يدرس العلامة اللّغويّة وغير لغويّة في النّسق البلاغيّ. فمن ناحية عناصر النّسج تتلقي جميع الإبداعات مع الأدب (رواية، قصّة، مسرحيّة، فيلم، رسوم متحرّكة)، إلاّ "أنّ الأدب يمتلك عنصرا يحدّده خصوصا: إنّه لغته، وهو العنصر الذّي بحثت فيه الشكلانيّة الرّوسيّة - جمعية دراسة اللّغة الشّعريّة- تحت اسم الأدبيّة، وقد أسماه "جاكبسون"(***Roman Jakobson***)بالشّعرية، والشّعريّة هي التّحليل الّذي يسمح بالإجابة عن السّؤال: ما الّذي يجعل من رسالة قوليّة أثرا فنيّاً" [14]. وممّا نلاحظه ونحن نقرأ المسار التّحليلّي والنّقديّ للنّاقد -الفرنسي رولان بارت- أنّ آراءه لا تخرج عمّا قاله الشّكلانيون الرّوس فمن سؤالهم انطلق في البحث عن مواطن الجمال الأدبيّ الّذي يخلقه المبدِع في نصّه.

التّحليل البلاغيّ والأدب(السّيميوطيقا الإيحائيّة):

لازالتِ البلاغةُ محافظةً على شكلها الأوّل الّذي كانت عليه منذ قرونها الأولى مع اليونانيين، والّذي تمثّل في الإقناع، وعليه كانت بادئ الأمر لما احتاجها بعض قدماء اليونان في الدّفاع عن حقوقهم الّتي سُلِبت منه عنوة، والإقناع لن يكون بقصور التّعبير وهو البعد الثّاني الّذي كانت لأجله وبالجمع بين البعدين تتأسّس السّلطة لهذا الخطاب؛ فأن ترغم شخصا برسالة قوليّة أمر قد يأخذ من صاحبه زمنا طويلا، وبهذا الهدف المعلن عنه كانتِ البلاغةُ مؤسسة اجتماعيّة، والرّباط الّذي يجمع الأشكال اللّغويّة بالمجتمعات، هو بشكل مفارق أكثر مباشرة من العلاقة الإيديولوجية المحضة، فقد وُلِدت البلاغة في بلاد الإغريق القديمة من دعاوى الملكيّة الّتي تلت ابتزاز الطّغاة، وقد كانت في المجتمع البرجوازي فنّ الكلام حسب بعض القواعد، وهي في نفس الوقت علامة سلطة اجتماعيّة وأداة لهذه السّلطة"[15].

هذا تعريف وظيفيّ للبلاغة يكاد يجتمع عليه جميع النُّقاد، وهي بالتّالي موجودة في كلّ الحقول والمعارف، كما أنّ النّاس في تداولهم اليومي وحديثهم العادي لا يخرجون عن هذا التّعريف التِقني، فالبشر يتواصلون عامّة من أجل التّأثير كما يقول "إزوالدديكرو" [16]، وهو ما يعني أنّ اللّغة مظهرين

اثنين أولهما تقريري مباشر له وظيفة إقناعية عقليّة والثّاني انزياحي إيحائي يحمل صفة تخييليّة إمتاعيّة.

إلاّ أن النّاقد رولان بارت حاول أن يجد لها تعريفا آخر نحى فيه منحى بنيويّاً سيميائيّاً استقاه من دراسته للعلامة في السّياق الّذي قيلت فيه، بالدّليل والبرهان، وكأنّ بارت في تعريفه هذا يجعل السّيميائيات في مرحلته بلاغة عصره، لأنّنا في عالم الإشارات والإنسان الآن يتعامل بالرموز والإشارات والأيقونات ، فكان لا بدّ للباحث من دراسة هاته الدّوال وتحديد معانيها؛ وبالتّالي صاغ تعريفا حاول بها تقصّي الجمال الغائر في الظّاهرة الأدبيّة معتبرا إيّاه مثالا في التحليل البلاغي الجديد القائم على اللّغة وأيّة لغة؟ يقول بارت: "نعرف أن كلّ رسالة (والأثر الأدبيّ واحد منها) تضمّ على الأقل حقلا للعبارة أو حقلا للدّوال وحقلا للمحتوى أو حقلا للمدلولات؛ واتّصال كلا المحورين يكون العلامة (أو مجموع العلامات)، غير أنّ رسالة مكوّنة حسب النّظام البسيط يمكن بواسطة عملية تفكيك أو توسيع أن تصير الحقل البسيط لعبارة رسالة أخرى، الّتي هي من النّوع الواسع بالإجمال، إنّ علامة الرسالة الأولى تصير دالّا للرسالة الثّانية. نحن إذن أمام حضور نسقين سيميوطيقيين متشابكين الواحد منهما مع الآخر بطريقة منظّمة، وقد أطلق **يالمسليف** على النّسق الثّاني المبيّن هكذا اسم السّيميوطيقا الإيحائية، بالتّعارض مع اللّغة الواصفة الّتي تصير فيها علامة الرّسالة مدلولا وليس دالاّ "[17].

تمتاز اللّغة الواصفة بالبحث عن قواعد اللّغة الأولى باعتبارها لغةً طبيعية أو لغة المنشأ، وكأنّ اللّغة الواصفة (الشّارحة) لغةُ ضبط وتعديل للقواعد والتّراكيب وطرق توظيفها في الخطاب الذّي يسمّى بعد تلك العملية بالخطاب الواصف وهذا ما اشتغل عليه رولان بارت وآخرون، وإن تعدّدت تسمية هذه اللّغة بالميتا نصيَّة (Métatextualité)كما فعل جيرار جينيت(**Gérard Genette**)، وإذا كانت هذه اللّغة واصفة للّغة الطبيعيّة والمميزة لمكنوناتها الجماليّة الغائرة، مع شرحها وتقريبها فإنّ الأدب يقوم على هذه الأخيرة وبالدّرجة الأولى، باعتباره فنّا لغويّا بامتياز يقوم على المراوغة والانزياح والإيحاء فهو " بكلّ بداهة سيمياء تضمينية"[18].

ففي اللّغة الواصفة تتبادل أدوار العلامة فيكون المدلول دالاً في الرّسالة الثّانية، وهذا وجه من وجوه الإيحاء الّذي ينهض عليها الأدب، ففي نصّ أدبي مثلا نتواضع على أن تكون دلالته اللّسان(الفرنسيّة مثلا)، ثمّ تكون المدلولات مخالفة لهذا اللّسان أي ليست من حقله المعجمي ولا المعرفي، "فإذا قرأت : قدّموا مريحات المناقشة، فهذه الرّسالة لها جانبان من الفهم جانب تقريري يحمل فعلا يُنفّذ متى وُجّه للمستقبل(قدّموا) وجانب إيحائي يقول على تأويل هذا الكلام حيث المدلول هنا الحذلقة، وبالتّالي يكون الأدب في تصوّر رولان بارت نسق مزدوج يقول على التّقرير كما يقوم على

الإيحاء؛ والحقل الواضح والخصوصي ضمن هذا النّسق المزدوج، الّذي هو دوال النَّسق الثّاني سيؤسّس البلاغة وستكون الدّوال البلاغيّة هي الموحيات"[19].

إنّ هذا الكشف النّسقيّ للدّوال في أيّ نصّ إبداعي، يفرض على المتقبّل وعيّا كاملا بحيثيات القراءة الإنتاجية لهذا النّصّ الّذي أُحكِم صنعه، بعيدا عن المرحلة التّاريخية الّتي أُنتِج فيها، وإنّما بمساءلة الطّرق الصّانعة لهذا النَّصّ. وبهذا تتساوى سيميوطيقا الإيحاء مع الأسلوبيّة القديمة في طريقة الإنتاج، فالإيحاء خصيصة أسلوبيّة تقع بين قطبي الدّال والمدلول أي وسط النَّسيج السيموزيسي، وهذا ما عُنِي به "رولان بارت" إلاّ أنّنا نعتقد أن خلط رولان بارت للأسلوبية مع السِّيميائيات يُثبت شيئا واحد وهو بحث النَّاقد الدّائم عن إيجاد تفسير للوسط العلاماتي الّذي يقوم عليه الكون ككلّ، وبالتّالي تكون السّيميائيات ذريعة من ذرائع التَّحليل البلاغي الجديد، إلاّ أنّه يعي العلاقة المتباينة بين الأسلوبية ولسانيات الإيحاء؛ فالأولى كما يشير: "تدرس وسائل التّعبير، لذلك تبقى مرتبطة بحقل الكلام، في حين أنَّ الثّانية تدرس السّنن وتقف عند حقل اللّسان "[20].

إنَّ هذا التّقاطع الحاصل بين الأسلوبيّ والإيحائي هو ما يجعل الشِّعريّة تحضر في نصّ وتغيب عن آخر، والسّبب في نظرنا ليس حكرا على المتلقّي فحسب بل على المبدِع كذلك أو صاحب النَّصّ الّذي يلجأ في كتابته الأولى إلى تحديد الأثر الأدبي الّذي يؤدّيه هذا النَّص في آخر الأمر، وعلى هذه التراتبيّة الممنهجة صاغ "رومان جاكبسون" الوظائف السّتة للرِّسالة مركِّزا على الوظيفة الميتا لسانيّة والشّعريّة متّخذا إياهما محلّا الجمال وهي نظرة أقرّها رولان بارت، وهو ما نلمسه في قوله: "أمّا الوظيفة الميتا لسنية أو التفسيرية فتؤكّد الرجوع إلى السّنن وأخيرا عندما تكون الرّسالة ذاتها مظهرها الجانب الملموس لهذه العلامات فإنّ الخِطاب هو شعريّ بالمعنى الواسع للمصطلح إنّها بالطّبع حالة الأدب" [21]، فالوظيفة الميتا لسانية القائمة على تحديد السّنن فيما يكون بين الباث والمتلقّي، فالباث يشفّر السّنن والمتلقّي يسعى جاهدا لتفكيكه بالنظر في قواعده اللغوية وتمظهراته الدّلاليّة، وتماشيا مع هذه الوظيفة ينفتح النّصّ ويزخر بتأويلات؛ هي ما تنبو عن وظيفته الشِّعريّة المشعّة، وهي سرّ الجمال في الرّسالة الأدبيّة.

لا يزال النَّصّ يفرض هيمنته على القارئ (رولان بارت) إذ سرعان ما يلجأ إلى تبنّي آلية أخرى في التّحليل، وسبر أغوار الرِّسالة الأدبيّة وتتمثّل في التّوزيع وذلك إيمانا منه أنَّ" جزءا كاملا من اللّسانيات يهتم اليوم اهتماما أقل بمعنى الكلمات من اهتمامه بمشتركاتها التَّركيبيّة الّتي تستطيع أن تأخذ فيها أمكنتها، ولكي نتكلّم على وجه التّقريب نقول إنّ الكلمات تشترك فيما بينها بحسب سلم احتمالي " [22]. وبمعنى آخر يؤكّد بارت على قضية الألفاظ وطرق إيرادها عفويّة، فمرّات نجد بعضها يتلاءم بشكل

سوي دال ومدلول علاقة تركيبيّة تؤدّي معنى، لكن إذا وضعنا دلا وليكن ذئبا وأردنا جمعه مع مدلول آخر مثلا نبات رغم أنّهما، فالمستقبل عفويّا يعي أن الذّئب يعوي لكن يستصعب كلمة نباح.

ينطلق بارت في بحثه عن شعريّة النّصّ الأدبي من هذا المثير الأسلوبيّ في مراميه، إذ منه يستطيع جسّ نبض الرّسالة الأدبيّة، وهو ما سمّاه بالمحفّز" والحال أنّ للمحفّز علاقة محدودة مع خصوصيّة اللّغة الأدبيّة، ففي بعض الحدود الّتي يجب دراستها بدقّة، نجد أنّه كلّما كان المحفّز شاذا كان الأدب بريئا، وطبعا إذا تمسكنا بالوحدات الحرفيّة فإنّ الأدب ليس على الإطلاق مخالفاً للمحفّز العاديّ"[23]. ولو لم يعمل المستقبِل بهذا المحفّر لقصر الفهم ولتحوّل الأدب إلى فوضى عارمة؛ قواعد غير ممنهجة. وكأنّ النّاقدَ بارت بكلامه هذا يحاول تأكيد الوظيفة الشّعريّة المهيمنة على الرّسالة ككلّ، فالسيميوطيقا الايحائية لا تبحث في هذه القوالب المغلقة من قبيل هذا المثال ؛ فهذه جمل لا تفسير لها لأنّ المرئي والبصري يخالف الواقع؛ وإنما تبحث في ظلال المعنى الموحى الشّفاف الغائر بالمعاني الّذي كوّنته مجموعة من الأنساق في مجتمع من المجتمعات وعليه يكون الأدب" "أساسا نسقا ثمينا للإعلام، غير أنّ الأدب إذا كان بانتظام ثميناً، فهناك مجموعة من الاقتصادات الثّمينة الّتي يمكن أن تتغيّر العصور والمجتمعات"[24].

فالرّسالة الأدبية انزياح لمشترك العلامات، القائمة بين كلّ مجتمع وما ينسبه هذا المجتمع إلى أدبه من اقتصاد ورقيّ، ولا يمكننا الحكم على جماليّة رسالة أدبيّة ما في فترة تاريخية قيلت فيها، وفي مجتمع آخر، فمن المحتمل أنّ السّنن قد خضع لتغيير عميق على الصّعيد التّاريخي والاجتماعيّ و"التاريخ مستدعى لتحويل إيقاع هذه التّغيّرات، وليس أشكال ذاتها، وربّما كان هناك بعض المستقبل داخليّ النّمو لبِنية الرّسالة الأدبيّة، مشابها لذاك الذّي يحكم تحوّلات الأنماط " [25]. فلكلّ مجتمع بلاغته أم بالأحرى سننه البلاغيّ.

إنّ علاقةَ البلاغة بالمجتمع في نظر بارت تقوم على قياس درجة صراحة السّنن البلاغيّ، وهذا قد تتفاوت فيه رسالة أدبيّة عن أخرى، ففي العصر القديم مثلا كانت الرّسالة تعلن عن تضمينها عمداً، وما كان ذلك إلاّ لأنَّ الصّور كانت تؤسّس سننا منقولا بواسطة التّعلّم، ويكون هذا السّنن بمثابة المعيار الّذي يشكّل الرّسالة في ذلك الوقت، إلاّ أنّ هذا السّنن ومع تطوّر البلاغة تطوّر معها دلالة في كلّ مجتمع، وعليه أصبح بمقدورنا الحكم على أدب أي مجتمع بالجودة والرّداءة، أخذين بالخصوصية الموجودة في مجتمع دون غير" لكن هنا لا يجب انتظار علاقة تشابهيّة بين مجموعة من المستعملين وبلاغتهم. إذ المهمّة في ذلك منصبّة على إعادة بناء نسق عامّ للسّنن الثانويّة، حيث كل واحد معرف في بعض حالات المجتمع بواسطة اختلافاته، مسافاته، هوياته اتجاه جيرانه: أدب النّخبة

والثّقافة الشعبية، الطليعة والتّقليد يكونون سننا مختلفة مموضعة في نفس اللّحظة(...) وهذا الذي يجب دراسته، ومثل سنن ليس ذاته غير طريقة لتوزيع سلسلة مغلقة من العلامات، ويجب أن يؤخذ تحليل البلاغة مباشرة ليس من السّوسيولوجيا، بحصر المعنى، ولكن الأجدر من هذا السيوسيو-منطق، أو سوسيولوجيا أشكال التّقسيم الّتي طالب بها مسبقاً دوركايم وموس"[26].

هذه هي الأبعاد الكبرى للتّحليل البلاغيّ الّتي قدّمها النّاقد الفرنسي "رولان بارت"، وهو تحليل لا يتعارض مع القديم؛ بل هو تكملة له فيما يخصّ دراسة الرّسالة الأدبية في تمفصلاتها وتمظهرتها، إلاّ أنّ الحركيّة النّقدية الّتي تشهدها مختلف المدراس البِنيوية ومناهجها الّتي تبحث في طرق صناعة القول الأدبيّ والمرامي الّتي يتشوّف المبدِع بثّها في رسالته لتحقيق الإقناع والإمتاع، تعطيه إمكانات متجدّدة للكشف وسبر أغوار الظّاهرة الأدبيّة، وهو بالتّالي تحليل له منهج جديد "لأنَّ الطّبيعة الشّكليّة للموضوع الّذي يريد دراسته(الرّسالة الأدبيّة) يستوجب وصف السّنن البلاغيّة أو الأسنن البلاغيّة على نحو محايث وشامل قبل إقامة أيّة علاقة بين هذه السّنن مع المجتمع والتّاريخ اللّذين ينتجانها ويستهلكانها" [27]. وهذا ما يجعل المعنى في الرّسالة الأدبية يحيا ويتجدّد مع كلّ قراءة نقديّة جديدة.

هوامش البحث:

1. التَّحليل البلاغيّ رولان بارت.تر: عبد العزيز السرَّاج. مجلة نوافذ،ع(31)؛ 2005م، ص: 78.
2. نفس المرجع، ص: 02.
3. ينظر: المرجع السَّابق، ص: 79.
4. ينظر: نفسه، ص: 79، 80.
5. "من البلاغة الكلاسيكية إلى البلاغة الجديدة ". جميل حمداوي. مجلة التّراث العربي، سوريا، العدد المزدوج (132،133)، 2014م، ص: 32، 33.
6. نفس المرجع، ص: 33.
7. ا"لسّيميوطيقا والعنونة". جميل حمداوي. مجلة عالم الفكر، مج (25)، ع(03)؛ 1997م، ص: 79.
8. مبادئ في علم الأدلَّة. رولان بارت. تر: محمد البكري، دار الحوار للنَّشر والتَّوزيع، سورية، ط2؛ 1987م،ص:31.
9. س/ز. رولان بارت. تر: محمَّد البكري. دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت، لبنان،ط1؛ 2016م، ص: 41.
10. ينظر: بلاغة الصورة" .رولان بارت،، تر: علي تيزلكاد، الثّقافة المغربية، المغرب؛ع 5؛ 1992، ص: 39، 40.
11. قراءة جديدة للبلاغة القديمة. رولان بارت. تر: عمر أوكان. رؤية للنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط1؛2011م،ص:07.
12. هسهسة اللغة. رولان بارت. تر: منذر عياشي. مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، ط1؛ 1999م، ص: 165.
13. Roland Barthes.RevueCommunications. 1970Volume 16 . L'ancienne rhétorique [Aide-mémoir]:article Numéro 1p. 173.
14. ينظر: قراءة جديدة للبلاغة القديمة. رولان بارت. تر: عمر أوكان. ص: 187.
15. نفس المصدر، ص: 188.
16. اللّغة والحجاج. أبو بكر العزاوي. دار العمدة، الدار البيضاء، المغرب، ط1؛ 2006م، ص: 08.
17. قراءة جديدة للبلاغة القديمة. رولان بارت. تر: عمر أوكان. ص: 189. كما ينظر: هسهسة اللغة. رولان بارت. تر: منذر عياشي. ص: 167.
18. هسهسة اللغة. رولان بارت. تر: منذر عياشي. ص: 167. أو هو سيميوطيقا إيحائيّة ينظر: قراءة جديدة للبلاغة القديمة. رولان بارت. تر: عمر أوكان. ص: 189.
19. قراءة جديدة للبلاغة القديمة. رولان بارت. تر: عمر أوكان. ص: 189.
20. هسهسة اللغة. رولان بارت. تر: منذر عياشي. ص: 168.
21. قراءة جديدة للبلاغة القديمة. رولان بارت. تر: عمر أوكان. ص: 191.
22. هسهسة اللغة. رولان بارت. تر: منذر عياشي. ص: 169.
23. قراءة جديدة للبلاغة القديمة. رولان بارت. تر: عمر أوكان. ص: 192.
24. نفسه، ص: 193.
25. ينظر: نقد وحقيقة. رولان بارت. تر: منذر عياشي. مركز الإنماء الحضاري، حلب، ط4؛ 1994م، ص: 96، 97
26. قراءة جديدة للبلاغة القديمة. رولان بارت. تر: عمر أوكان. ص: 195.
27. ينظر: التَّحليل البلاغيّ رولان بارت.تر: عبد العزيز السرَّاج. ص: 89.